

المحاضرة الثامنة : دراسة "جمال غريد"

1- حياته:

ولد في جوان 1943 بطولقة ببسكرة، من عائلة متدينة ومتعلمة فكان جده معلما بزاوية طولقة ، ووالده متخصص في أمور القانون والقضاء الاسلامي، تعلم جمال في مدرسة قرآنية ، كان جمال الشاب وأثناء تعليمه يتقاسم وقته بين الذهاب الى المدرسة القرآنية والمدرسة الفرنسية، اذ تميز منذ الأقسام الصغرى بالجدية، كاد أن ينقطع عن التعليم في بداية 1956 أثناء الثورة التحرير ونجح في مسابقة الالتحاق بالمعاهد وبأكثر تدقيق بثانوية فرنكو – اسلامية في النظام الداخلي بقسنطينة، تحصل على البكالوريا سنة 1963 ، تخصص في علم النفس ثم في علم الاجتماع ، شغل منصب أستاذ معيد في العاصمة سنة 1968 وتعرف على العالمين " بيار بورديو" و"جون بيار بريون"، ثم اتجه الى جامعة وهران وتحصل على الدكتوراه سنة 1970 ثم على شهادة أطروحة دولة 1994 بعنوان : التصنيع، الطبقة العاملة وعلم الاجتماع. قام بالعديد من الدراسات البحثية الميدانية منها: الصناعة والمجتمع. كما تخصص في المجال السوسيولوجي والبحث العلمي والأنثروبولوجية في الجزائر، كان يحلل الواقع الاجتماعي للفرد الجزائري بفهم الذات الجزائرية ومن خلال النقد الاجتماعي لهذا الواقع، والتأكيد على أهمية البحث الميداني في المجال العلوم الاجتماعية، توفي غريد جمال سنة 2013 ببسكرة خلفا عديد من المنشورات العلمية الهامة.

2- أعماله:

قدم العديد من الأعمال البحثية الميدانية خاصة ، فقد ساهم بالدراسة الانثروبولوجية حول العمل والعمال، من حيث تحديد هوية العامل الصناعي في الجزائر، فقد قدم دراسة علمية منها الصناعة والمجتمع سنة 1982، وبين خصائص العامل في المصنع الجزائري، وذلك في اطار انجاز أطروحة دكتوراه سنة 1994، حيث كانت دراسته بعنوان: التصنيع، الطبقة العاملة وعلم الاجتماع، مثال الجزائر، ودراسة : المؤسسة الصناعية في الجزائر حدود المثاقفة 1990، والعامل الشائع (عناصر الاقتراب من الوجه الجديد للعامل الصناعي الجزائري) سنة 1997، جدلية التقليدي والحداثي (ثنائية الثابت والمتحول في البنية الثقافية الجزائرية) وأيضا قدم العديد من المقالات العلمية والتي من بينها:

- المؤسسة الصناعية في الجزائر وصراع العقلايات سنة 1990
- الجامعة بين الدولة والمجتمع 1998
- نظرة على الصحة في الجزائر 2002
- الاستثناء الجزائري 2007
- الجزائر بين ثنائية المجتمع وثنائية النخبة 2007
- الجزائر، الانثروبولوجيا لنجدة التراث اللامادي والتنمية 2012.
- الدخول الى السوسيولوجيا 2013

3- إهتماماته:

يعد "جمال غريد" أستاذا وباحثا ومفكرا متميزا في علم الاجتماع وفي الانثربولوجيا، فقد ساهم في تحقيق المعرفة وفهم واقعية المجتمع الجزائري وخصوصيته، وتبنى الحقيقة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع على الحقيقة العلمية بوصفها الحقيقة الواقعية، مستمدا ذلك من الواقع الجزائري ومن ثقافته وأصوله، فكان له بعد أنثربولوجي وسيوسولوجي محكم، فهو من أسس الانثربولوجيا الجزائرية. حيث يقول "محمد بشير" في كتابه عن "جمال غريد" أن انجازاته أضحت تمارس سيادة علمية... وصف بأنه أحد أعمدة الوسيولوجيا في الجزائر، وصاحب الثنائية الثقافية،

- **une tête pensante bien Algérienne...ce digne Algérien.**
- **Un homme intègre, érudit, strict, sur les principes, l'irréprochable.**

لقد تولدت لديه فكرة اقتراح معرفة حول المجتمع الجزائري باعتبارها إنتاجا تاريخيا، واقتراح شبكة تحليل لدراسة المجتمع الجزائري في كليته أو إحدى مكوناته. ويعد أيضا "جمال غريد" من المؤسسين ان لم نقل المؤسس الأساسي للتحقيقات الميدانية في الجزائر كتوجه ابستمولوجي، انه الأستاذ الذي لا يتكلم كثيرا يرفض الأضواء ولكنه يرى ويسمع كل شيء.

4- دراسته حول العامل الصناعي والعامل الشائع :

بدأت أبحاثه بدراسة حول المصنع والمجتمع (مركب الحجار 1982) والتي تعد بحثا تأصيليا لعلم اجتماع التنظيم والعمل في الجزائر ، والتي كانت قد اعتمدت من طرف كل من علي الكنز وسعيد الشخي في دراساتهم حول واقع الطبقة العمالية في مركب الحجار، فجمال غريد قد وضع الجانب الثقافي للعامل الجزائري، وما قدمه من تحليل عن المؤسسة الصناعية باعتبارها أهم مؤسسة عالجه من الجانب الثقافي والتي يمكن اسقاطها على مؤسسات التنشئة الاجتماعية الأخرى.

وتعد دراسة أثر التصنيع على مدينة سيدي بلعباس 1990، ودراسة العامل الشائع 1997 من بين الدراسات الأكثر أهمية بالنسبة لتحليل الهوية الثقافية للعامل الجزائري في القطاع الصناعي العمومي.

وتمثلت هذه الدراسة في تحليل ابستمولوجي لعناصر التفكير الاجتماعي للعامل الجزائري في المصنع، وهو طرح سوسولوجي وانثربولوجي معا حول واقع الثقافة الجزائرية للمؤسسة الصناعية. لقد استخدم الثلاثي "علي الكنز" و "سعيد شخي" و "جمال غريد" مصطلح الشائع في دراساتهم في مصنع الحجار لتوضيح الثنائية الثقافية (كلاسيكي وصناعي) وهو منطلق اللاعمل، والذي كان سببا في فشل التنمية الصناعية في الجزائر، ودليل على عرقلة مشروع الدولة في تحقيق الحداثة والعقلانية.

ولقد استخدم الطرح الابستمولوجي من خلال تحليل لواقع الثقافة الجزائرية والتصور الطبقي للتاريخ، والثنائية الثقافية: ثنائي الحدائي/ التقليدي ، والثقافات الفرعية وصراع المعربين والمفرنسين وهي ازدواجية لغوية وثقافية وايدولوجية للمجتمع الجزائري ، مثلا التصورات حول التنمية متناقضة بين المعربون الذين يحاولون احياء التراث العربي الاسلامي، والمفرنسين الذين يملكون قيم الديمقراطية والحدائثة...

أما الثنائية أو الازدواجية بين العامل الصناعي والعامل الشائع كموضوع في تخصص علم اجتماع العمل في الجزائر، فيتجلى عن وصف الباحث للخصائص والميزات السلوكية للعامل في مواقع العمل، وفي المؤسسة الصناعية الجزائرية من خلال تحقيق ميداني لمصنع تيريفلور، مصنع الحجار وورشاته، ومنها ورشة الفرن العالي. كما يصف العامل الصناعي الذي تواجد في المؤسسة الصناعية العمومية فترة بداية التصنيع 1970-1980 بوجود صنفين مختلفين هما : العامل الصناعي الكلاسيكي الغربي والشبيه في علاقاته مع المصنع بالعامل الذي عرفته المجتمعات التي شهدت التصنيع سابقا وتكون ضمن المؤسسة الصناعية الرأسمالية التي أكسبته ثقافة صناعية في ظرف وجيز تكون ملمح العامل الصناعي الكلاسيكي الجزائري خصوصا ضمن الظرف الكولونيالي، وقد كانت لعمليات الاحتكاك المباشر مع العمل الصناعي مع التكنولوجيا ومع أشكال التنظيم العمالي والنضالي في تلك الفترة دور في تكوين هذه الملامح الحديثة، والعامل الشائع الذي لا يمت بأي صلة لهذا الملمح.

العامل الشائع هو الدلالة على خصائص نموذج اجتماعي للعامل بالمصنع الجزائري، فمعنى " الشائع" هو ذلك السلوك أو الممارسة التي يظهر عليها الفرد أو يختص بها فاعلون أو فئة معينة عبر مواقف وميولات واهتمامات وأفكار خاصة، والتي على أساسها يتم أداء أدوارهم (أي العمال) في بيئة العمل وأيضا في البيئة الاجتماعية.

و"الشائع" مصطلح لسلوك سلبي مبالغ فيه التقاليد والإعراف واللامبالاة وهو سلوك شائع عند الأغلبية في المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية بفعل عدده والفئة العمرية التي ينتمي اليها، وبفعل التنشئة الاجتماعية التقليدية عموما. واستخدامه كمصطلح مرادف ل" الكلاسيكي " أو لمصطلح "المركزي" وهو نموذج للعقلاني ذو الكفاءة والرؤية الواضحة والالتزام في العمل. " يساهم بروز العامل الشائع وهيمنته داخل الورشات ليس فقط في انفجار الصورة النمطية عن العامل الصناعي، بل فرض أيضا وخاصة على المستويين الاقتصادي والنظري تفكير جديد يقارب بطريقة جديدة المشاكل العويصة للتنمية."

من هو العامل الصناعي ومن هو العامل الشائع؟ حسب تحليل جمال غريد.

● العامل الصناعي: l'ouvrier industriel أن المصنع عالم للعقلانية والفعالية ... ونظرية التحديث modernisation قد ألحت على أهمية المصنع كمؤسسة لإعادة التنشئة الاجتماعية في بلدان العالم الثالث.

● العامل الشائع l'ouvrier majoritaire : هو وجه من الأوجه الناتجة عن الاحتكاك و"المواجهة" الدائر بين الشكل الذي اتخده التصنيع والتشكيلة الاجتماعية التي يتطور فيها، فهو العامل الذي نلاحظ حضوره القوي في ورشات المؤسسات الصناعية الكثيرة والتي انجزت في إطار المخططات التنموية. أما نظيره "العامل المركزي" فقد أضحى شبه غائب... يقول جمال غريد فالعامل الشائع هو عادة عامل شاب من أصل ريفي وحتى فلاحي، وهو مازال يحافظ على ارتباطات مع عالمه الأصلي حيث يوجد - في أحيان كثيرة- مقر سكنه ... فإن العامل الشائع لا

يمكن تعريفه إلا بصفة سلبية : فهذا الفلاح الذي لم يتخلص بعد من فلاحيته، هذا الإمي يجمع في شخصه كل السلبيات: الجمود، اللا وعي، اللا مسؤولية ، اللا تبصر... فهو حقيقة نموذج العامل المضاد أو على الأقل نموذج ما قبل العامل". ويضيف " جمال غريد" أن التساؤل الذي يفرض نفسه هو: هل العامل الشائع هو عامل انتقالي؟ هل هو مدعو في أمد قد يقصر أو قد يطول للاختفاء ليحل محله " العامل النموذجي". ويبقى السؤال مطروح لحين إثبات أدلة ... وهي تجد في تجربة التصنيع والتثقيف الأوروبية ما يعزز جانبها ويقوي مركزها. فلم تندحر مقاومة الثقافات ما قبل الصناعية في أوروبا إلا بعد صمود دام نصف قرن من الزمن.

ان العمال في المصنع لهم حنين الى الماضي " العمل الفلاحي"، فتقافة المؤسسة ليس لها القدرة على المقاومة والقضاء على ثقافة المجتمع المحلي. كما ان مفهوم العمل في المجتمع الجزائري يكمن في جوانبه المادية فقط، وهذا لا ينعكس سلبا على الأداء فقط، وإنما يكون عائقا للتطور والتنمية، كان تحليلا لواقع العمل في المصنع عند " جمال غريد" حيث يقول: أن العمال يقدمون نصيبا من وقتهم في مقابل مبلغ مالي معين ، فلا يبدو أن تكون لديهم مشروع جماعي يستهدف التحول الاجتماعي انطلاقا من المصنع.

واستنتج " جمال غريد" من خلال دراسات ميدانية، انه قد اتضح أن الشائع هو نتاج لاحتواء البنية الثقافية والتقليدية بعيدا عن كل رموز التحديث والعصرنة والعقانة ، ونتاج لأساليب المقاومة العفوية لكل رموز التحديث أو التغيير للبنية التقليدية . فقد كتب محمد حربي: يظهر أنه من الأفضل عكس التوجه فبدلا من دراسة تحول المزارعين الى عمال صناعيين يستحسن البحث في تأثير المزارعين على فضاءهم الجديد في العمل والسكن، وفي الميدان الثقافي... ولكن التاريخ لم يعتمد على أعمال " جمال غريد" وتصوراته لخروج المجتمع من تلك الثنائية".

وكانت الخصائص الاجتماعية للعامل الجزائري الصناعي، بإندماجها مع الخصائص المجتمعية الفلاحي التقليدي، بحيث يقوم العامل وهو أمام آلات تكنولوجية حديثة بسلوكيات ومواقف لا تختلف عن سلوك الفلاح والمجتمع الريفي، لذلك فالحياة الاجتماعية التي يعيشها العامل خارج المؤسسة الصناعية يقوم بحملها إلى مكان العمل، والأجراء لا يغادرون ذواتهم عند دخول المؤسسة، ويؤكد في تحليله للعامل الشائع أن العمل وتنظيم حياة العامل الشائع الاجتماعية حول قطبين متعارضين في كل شيء: مكان الإقامة ومكان العمل.

- خلاصة الدراسة :

ان الباحث "جمال غريد" الذي يشهد له العديد من المفكرين الجزائريين والأجانب على منتوجه الفكري والعلمي، وهذا من خلال عقد ملتقى بجامعة سطيف تخليدا لأبحاثه، فكانت من بين أهم الشهادات والمداخلات : مداخلة الباحث "محمد مداني" من مركز البحث USTO بوهران، حول دور " جمال غريد" في انشاء فرع الأنثروبولوجيا، وملخص قوله أن "جمال غريد" يعتبر رجل مشاريع علمية ونضال، فتح آخر ورشة علمية، فيما أصبح يسمى بحقل "حدث المعرفة" ملاحظا أن المجتمعات الحالية ما بعد الصناعية، أضحت تتصف بهذه الظاهرة الجوهرية المدمجة والمختلفة في الوقت نفسه، ووضح أن حضارة جديدة تتوحد تحت أعيننا، يكمن قوامها في الموارد اللامادية والتي لا تكتشف اليوم الا افتراضاتها" . ومداخلة المفكر الفرنسي " برنار تريمون" الذي ينوه بإنجازات "جمال غريد" ومن خلال مداخلة، نيابة عنه

قدمها "بن تامي رضا" من جامعة تلمسان، قوله أن التحقيقات الميدانية التي قام بها "جمال غريد" ومثيلاتها كانت جديفة، وتبين القطيعة بين الخطابات المعتادة والوقائع المعاشة، حيث يقول: يظهر لي أن هذا الدرس الكوني الذي أمدني به وبأبحاثه ولقاءاتي به هي نواة تفكيره. "ويضيف المتدخل "العرباوي عمر" أن مشروع " جمال غريد" في انشائه لفرع أنثربولوجيا الجزائر المعاصرة (2007/2000) كان جديرا بالوقوف على أصالته ومسالكه المتعددة، وهذا المشروع الذي فتح لطلبة مابعد التدرج في إعادة قراءة الواقع الجزائري، وفهم طبيعة التحولات الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري على ضوء الامكانيات التي تقدمها المقاربات الانثربولوجية نظريا ومنهجيا (من خلال التحقيقات الميدانية).

وعلى ضوء التصريحات السابقة، فإن أغلب المشتغلين بعلم الاجتماع والانثربولوجيا في المجتمع الجزائري قد يجدون ظالتهم في أعمال هذا الباحث والمفكر الجزائري "جمال غريد" الذي قدم أعمالا قيمة من خلال اهتماماته بقيم المجتمع الجزائري وخصائصه الثقافية، وكانت أبحاثه هامة وبكثير من الشغف حول "المصنع" و"العامل" والمجتمع" منذ بداية التسعينات من القرن الماضي وخلال مدة 40 سنة من العطاء العلمي والمعرفي .

● قائمة المراجع:

- د.محمد بشير: جمال غريد – السوسيولوجي والانثربولوجي صاحب الثنائية الثقافية- مخبر المؤسسة الصناعية والمجتمع في الجزائر كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية جامعة تلمسان، دار الكنوز للنشر والتوزيع تلمسان 2016.
- جمال غريد: العامل الصناعي - العامل الشائع ، عناصر الاقتراب من الوجه الجديد للعامل الصناعي الجزائري ، مجلة انسانيات العدد 1 الصادرة عن مركز CRASC وهران ، خريف 1997 .
- Mohamed Harbi : Eléments de débat sur la classe ouvrière et le mouvement ouvrier en Algérie ; revue NAQD , 2001 (hors série)
- زاوي فكري: جدلية التقليدي والحديثي – قراءة في تحليل " جمال غريد" لثنائية الثابت والمتحول في البنية الثقافية الجزائرية، مجلة مخبر التغيير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر جامعة بسكرة العدد الثالث، جانفي 2017.